البعد السياقي والاتجاه النسقي في قراءة التراث النقدي والبلاغي، قراءة جابر عصفور نموذجا

Contextual dimension and systemic orientation in the reading of critical and rhetoric heritage, a reading of Djaber Asfour as a Model

رمضان بوضياف *

أ.د. عبد الجليل مرتاض♣

تاريخ الإرسال: 2021/02/19	تاريخ القبول: 2021/10/28	تاريخ النشر: 2022/11/10

الملخص:

أتاح المنهج السياقي آفاقا جديدة في النقد والأدب، ودفع بالقارئ أن يكون أبرز عناصر الخطاب، وجعله مشاركا في صناعته، وأضحى النظر إلى المعنى في نظريات القراءة والنقد المعاصرة على أنّه نتيجة للقاء بين نصين: النص المقروء ونص القارئ، والمتتبّع لجهود المحدثين في قراءة التراث النقدي والبلاغي سيقف على جملة من الأسماء والأعلام، وسيكون الناقد جابر عصفور أحدّ أبرز المصنّفين في هذا الخصوص. لذا رأينا أن تكون ورقة البحث متعلقة بالسياق والنسق من منظور قراءته للتراث العربي، سيما التراث النقدي والبلاغي.

وقد خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج المسجّلة في خاتمة البحث، منها أنّ قراءة جابر عصفور للتراث النقدي تتّسم التراث بالسياقية والإحاطة الشمولية التي أفرزت تلك النصوص وأنتجتها، وهكذا نجد قراءته تربط النصوص بمختلف الأنساق المعرفية، ومنها أنّ ربط التراث النقدي والبلاغي بمناهج النص والسياق في قراءة المعاصرين من أجدر البحوث قراءة ومتابعة.

الكلمات المفتاحية: السياق، النسق، التراث النقدي، التراث البلاغي، جابر عصفور.

***جامعة تلمسان، البريد الالكتروني: boudiaframadhan@gmail.com**

♣جامعة تلمسان، البريد الإلكتروني: labo_lexique@mail.univ-tlemcen.dz

Abstract:

The systemic approach allowed new prospects in criticism and literature and incited the reader to become a prominent element in dialogue and allowed them to become a part of its creation. Studying meaning has become, in theories of reading and modern criticism as a result of the intertwinement of two texts: the read text and reader's text. Researchers interested in the modernist's efforts in reading critical and rhetoric heritage and will thus stand before a set of proper names. Critic Djaber Asfour will be one of the most prominent names in this regard. Therefore, we saw it fit that the research paper is related to the context and the setting from the perspective of its reading to the Arab heritage, especially the critical and rhetorical heritage.

The study concluded a number of results noted in the research conclusion, including Djaber Asfour's reading of critical heritage, which is comprehensive and coordinated. Moreover, we find that it links texts to various cognitive contexts, including linking critical and rhetorical heritage to the text and context approaches in modern readings, making it one of the worthiest of research to read and follow up on.

***Key words**:* context, system, critical heritage, rhetorical heritage, Djaber Asfour

*** *** ***

المؤلف المرسل: رمضان بوضياف. boudiaframadhan@gmail.com

1. مقدمة:

لا يمكن التفكير في أيّ نتاج نصيٍّ كان: (أدبي، فلسفي، نقدي، تاريخيّ..) خارج نطاق المنظومة التربوية المتفاعلة مع الواقع الإنساني، بحيث لا يدرك هذا الواقع إلا من خلال بنيات منظمة، يعمل السياق الثقافي على إنتاجها وتفعيلها في الآن نفسه، "لذا توجد علاقة وثيقة متلازمة بين فعل إنتاج النصوص وبين فعل تلقّيها، لأننا في واقع الأمر نعايش ثقافة نصوصية تجعلنا لا ندرك العالم وما يحيط بنا إلا ممّا تنتجه النصوص بوصفها مصدرا للمعرفة، ونافذة مفتوحة على الحاضر والماضي بحيث تسمح للذوات أن تدرك كينونتها الفعلية، فالنصوص تتولّد من ذوات وتتوجّه نحو ذوات أخرى بهدف مدّ الجسور والتواصل بين مختلف الثقافات، ولهذا لا يُكتب النص لذات محدّدة وبخصوصيات

معيّنة، حتى وإن سلّمنا بذلك فإن ذواتٍ أخرى لا محالة تختطفه، ولا تكون بالضرورة من زمن أو ثقافة معيّنين"[1].

من هنا، فالأعمال الفنية والجمالية هي أعمال مفتوحة دلاليا، وبنيات غير مكتملة، تستوجب من القارئ إتمامها، وملء فجواتها وثغراتها وبياضها حسب أفق توقعاته[2]، غير أنه ليس هناك تحقق مثالي للنص الأدبي والنتاج الفني بشكل عام، ولا تحققان متماثلان له حتى وإن كانا لنفس القارئ، لأن ذلك مرتهن بالخبرات الشخصية والأمزجة والرصيد المعرفي والمتغيرات الزمنية والمكانية وغير ذلك[3]. لذا فقد رأى هانس جورج غادمير أن القراءة تعتمد على الفهم الذي يقوم بإسقاط مفاهيم سياقية تاريخية وأحكام مسبقة على النص، لتأتي مرحلة التأويل التي تواجه تلك الأحكام المسبقة بمعطيات النص. أما في مرحلة التطبيق، فيتم التقابل بين قراءات تأويلية مختلفة. لذا "فالتفاعل شرط في بناء النصوص، سواء داخل النص الواحد أو علاقات نصوص مختلفة بحيث تسمح بفتح أفق يستوعب الماضي والحاضر. وذلك لن يتأتّى إلا من خلال استيعابها وفهمها وتأويلها وإدراجها في علاقات معيّنة ترنو في نهاية المطاف بإنتاج نص يحمل في جوفه كل النصوص السابقة"[4].

وهكذا، فالقراءة النسقية تدرس النص الأدبي في ضوء التصورات الفكرية والتصورات السياقية، حيث يتم الربط بين الذات القارئة والنص الموضوع في علاقات تفاعلية وجدلية وسياقية.

وعلى هذا المعطى العلمي رأينا أن تكون إشكالية الموضوع في البحث عن إمكانية ربط التراث العربي في مجالي النقد والبلاغة بما استجد في قراءة أعلام النقد المعاصرين، والبحث عن أيّ مقاربة نقدية استطاع بها هؤلاء الأعلام بعث المفاهيم النقدية القديمة وقراءتها بمنظور نقدي معاصر، وقد كان الناقد جابر عصفور موضوع الشاهد من هذه الدراسة، لأسباب نخالها تتمثّل في كون الرجل متفتّحا على النظريات والمناهج المعاصرة، وكون مؤلّفاته الغزيرة تزخر بثروة مصطلحية وحمولة معرفية جديرة بالبحث والنظر.

توزّع البحث على مبحثين اثنين، أدرجنا في كلّ مبحث ثلاثة عناصر، تناولنا في المبحث الأوّل قراءة التراث النقدي والبلاغي في جهود أعلام النقد المعاصرين، أمّا العنصر

الأوّل من هذا المبحث فتحدثنا فيه على النص بين القراءة والتأويل، وتطرّقنا في العنصر الثاني إلى قراءة التراث النقدي والبلاغي من منظور النقاد المعاصرين، أمّا آخر عنصر فكان بعنوان القراءة النصّية النسقية للتراث النقدي والبلاغي. على أنّ المبحث الثاني كان متعلّقا بقراءة التراث النقدي والبلاغي في جهود جابر عصفور النقدية، وقسّمناه إلى ثلاثة عناصر، عرّجنا في العنصر الأول على قراءة التراث النقدي في كتاب الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، وخصّصنا العنصر الثاني لكتاب " مفهوم الشعر دراسة ظاهراتيّة في التراث النقدي " وخصّصنا آخر عنصر في هذه الدراسة لموضوع التيارات الفكرية لدى جابر عصفور.

2. التراث النقدي والبلاغي من منظورقراءات النقاد المعاصرين:

1. 2. النص بين ازدواجية القراءة والتأويل:

إن المعنى الذي ينتجه النص لا يظهر للوجود إلا بفعل القراءة التي تستنطقه وتكشف عن خباياه العميقة أو درره المكنونة، لتصل إلى ما يقصده المؤلف ويتعمد إخفاءه أحيانا. والقارئ هنا ليس إلا شبكة مفتوحة وديناميةمن النصوص، إذ يتعامل مع النص حسب خبرته السابقة بالنصوص التي يستقيها من ثقافته أو خبرته الخاصة، يحدث كل هذا داخل جسد الكتابة، "فحوار النصوص يتم داخل جسد الكتابة من حيث إن الذات يمكن التعامل معها على أنها شبكة نصية معقّدة واعية وغير واعية تنتج نصا هو عبارة عن نسق سيميائي دال يتفاعل مع المتلقي الذي هو بدوره شبكة نصية تتداخل فيها المقصديات. إنه ملتقى لعلاقة الباحث بالمتلقّي من جهة وعلاقة الخطاب بالسياق من جهة أخرى"[5].

لذا مفهوم القراءة من المفاهيم الجديدة في اللغة النقدية والأدبية المعاصرة وأكثر المصطلحات ذيوعا وانتشارا، فهي كما يرى كثير من النقاد، عملية معقدة وشائكة، تشبه تعقيد إنتاج النصوص وإبداعها، بل إن امتدادات هذا المفهوم في الحقول المعرفية الأخرى جعل استجلاءه في غاية الصعوبة، "فليست القراءة عند الباحثين المعاصرين ذلك الفعل البسيط الذي نمرر به البصر على السطور، وليست هي أيضا بالقراءة التقبلية التي نكتفي فيها عادة بتلقي الخطاب تلقيا سلبيا اعتقادا منا أن معنى النص قد صيغ نهائيا وحدد، ولم يبق إلا العثور عليه كما هو، أو كما كان في ذهن الكاتب. إن القراءة عندهم أشبه ما تكون

بقراءة الفلاسفة للوجود، إنها فعل خلاق يقرب الرمز من الرمز ويضم العلاقة إلى العلاقة، وسير في دروب ملتوية جدا من الدلالات نصادفها حينا ونتوهّمها حينا فنختلقها اختلاقا"[6] يتضح من تعريف محمد مبارك لهذا المصطلح، أنه يتّسم بصعوبة تحديده والإحاطة بدلالاته. إن القراءة نشاط متعدد الوجوه وذات أبعاد كثيرة، "فقد تكون من فرد لفرد، ينتسب كلاهما إلى الحضارة نفسها، قراءة الحاضر للماضي، تواصلا للتراث مثل قراءة ابن رشد للفارابي وابن سينا، وقراءة أرسطو لأفلاطون، وقراءة هيدجر لكانط ونيتشه وهوسرل...إلخ، وفي هذه الحالة تكون القراءة تصحيحا وتجديدا لروح العصر عن طريق التأويل، وقد تكون القراءة من فرد ينتسب إلى حضارة لفرد آخر ينتسب إلى حضارة مغايرة، أو قراءة الحاضر للماضي كتواصل بين الحضارات مثل قراءة ابن رشد لأرسطو"[7]. وبالتالي فإن القراءة عمل فردي داخل كل حضارة من جهة، وعمل جماعي بين الحضارات من جهة ثانية، وبناء على ذلك فإن القراءة هي إعادة بناء المقروء طبقا لتصور القارئ فردا أو جماعة من أجل إكمال البنية أو اكتشاف القانون.

إذًا، "فالقراءة بهذا المعطى مغامرة مفتوحة للبحث عن المعنى واستكشاف كل الإمكانات المفتوحة التي يمكن أن يطرحها النص بوصفه فرضية قابلة للتفاعل مع أي إمكان يشكّله القارئ، ويطرحه نواةً محورية لبناء المعنى، ولهذا فالقراءة مفتوحة ومتعدّدة"[8]. وقد اعتبر غادمير **Gadamer** القراءة "تجربة وجودية مع النص المقروء، فمن خلالها لا تتجلى الحقيقة كمضمون في ذاته ولذاته، بل ككشف وانفتاح جديد على العالم"[9]، وإلا فستكون القراءة غير الموجهة تحصيلَ حاصل لا تؤدي إلى معنى، لأن القارئ يقرأ من غير أن يوجّه النص نحو معنًى معينٍ لتحقيق هدف، فالمعنى هدف قبل التحقق، والهدف معنى متحقق، القراءة إذن موقف، والقارئ صاحب موقف، إذ إن قراءة النص تختلف من قارئ إلى قارئ، ولعل قراءة النص الواحد تختلف من حين إلى حين، وأن ما تتطلبه قراءة لا تتطلبه قراءة أخرى، وهذا ما يجعلنا أمام قراءات تختلف باختلاف المرجعيات والأسس النظرية خصوصا إذا كان هذا النص غير معاصر للقارئ، بينهما هوة زمنية قد تمتد عقودا أوقرونا. "فالقراءات مهما تباينت أنواعها وتفاوتت مستوياتها تستضيف النص في ضوء قناعة مؤداها أن فضاء النص رحب، وأن قراره سحيق، ولقد

قيل إن الكلمة في النص أبعد من قامتها، وتستذكر أكثر من طاقتها على قراءة الماضي والهجس بالمستقبل"[10]، والحق إن فعل القراءة المتعاقبة على النصوص مسؤول إلى حد ما عن إعطائها القيمة الأدبية والمضمونية، أو سحبها عنها حسب الظروف والمراحل التاريخية المختلفة. فبفعل القراءة تخضع القيم الفنية على الدوام للارتقاء والإنجاز عند الأدباء، فما كانت له قيمة أدبية ومضمونية في عصر من العصور لا يلزم دائما أن يحتفظ بها متميزة في كل العصور اللاحقة[11].

فالنصوص لها خاصية جوهرية وهي قابليتها على الدوام لأنها تُقرأ في كل العصور من خلال زوايا متعددة وبأوجه جديدة، وهذا ما يجعل بعض النقاد يدعو إلى ضرورة استبدال علاقة القراءة بالفهم بعلاقة القراءة بالتأويل. وهكذا فالتأويل عملية جوهرية تمثل أهم مرتكز في قراءة النصوص "فالنص كيف ما كانت طبيعته يظل مجالا لتعدد القراءات، والنصوص التي تتميز بانفتاحها الدلالي، تظل منفتحة على عدد لا منتهٍ من القراءات الممكنة"[12].

مما يجعلنا نثير إشكال المعنى، هل هو ذاتي أم موضوعي؟ لا يمكننا الفصل في هذه المشكلة سيّما إذا تعلّق الأمر بالنص الأدبي، لأن: "المعنى في الأدب والتاريخ ليس شيئا موضوعيا تماما ولكنه ليس ذاتيا، إنه في حالة تغيير مستمر طالما أن العلاقة بين المفسّر والموضوع المفسَّر علاقة متغيّرة في الزمان والمكان"[13]. فلو كان ذاتيا صرفا ما انتفتْ عملية القراءة والممارسة التأويلية القائمة على أساس التفاعل بين الذات والنص والتاريخ، ولو كان موضوعيا ما انتفت التجربة الفاعلة التي تفتح الإمكانات الحيوية في النص التأويلي. ذلك بأن التأويل: "زحزحة للعلاقات وتغيير للمواقع، وإعادةٍ لترتيب عناصر العلامات"[14]. وبعبارة جامعة فالنص هو الذي يحدد بشكل ما شروط تأويله حتى يكبح جموح الذات المؤوّلة ويحافظ على كيانه في الآن نفسه ليضمن سيرورته وبقاءه، وعلى الذات أن تحدد منطلقها من النص وضبط مراحل الفعل التأويلي متمثّلة في: الوصف أو التوصيف، والتفسير، والتأويل، وأخيرا التقويم[15].

2.2: قراءة التراث النقدي والبلاغي من منظور النقاد المعاصرين:

انكبّ الدارسون المحدثون على قراءة التراث العربي في النقد والبلاغة إيمانا منهم بما يتضمنه هذا التراث من مؤلفات ذات أهمية قصوى وما تزخر به من أفكار وتصورات متميزة. ويمكننا أن نميز في قراءة المحدثين للتراث من حيث الموضوع، بين الاتجاهات التالية:

. قراءة تركز على قضية بعينها من بين القضايا النقدية القديمة (كاللفظ والمعنى، أو السرقات، أو القديم والمحدث، أو غيرها من القضايا).

. قراءة تسلط الضوء حول شخصية نقدية أو بلاغية قديمة، إذ يحاول القارئ تتبع الفكر النقدي لهذه الشخصية، واستعراض آرائها، وكيفية تناولها لقضايا النقد والبلاغة.

. قراءة تتمحور حول التراث النقدي والبلاغي في كليته وشموليته، تبحث في التصورات النظرية والتطبيقية وما يتصل بها من قضايا نقدية.

ويندرج هذا البحث ضمن الاتجاه الأخير، حيث نسعى من خلال هذه الدراسة إلى البحث في قراءة المحدثين للتراث النقدي والبلاغي ودراسة تصوراتهم ومناهجهم. واخترنا قراءة جابر عصفور أنموذجا لهذه الدراسة، نظرا لقيمته ومكانته في الثقافة العربية بصفة عامة، والنقد الأدبي بصفة خاصة، ولاهتمامه بقضايا التراث النقدي والبلاغي ولغزارة كتاباته في هذا المجال، ولأن الرجل منفتح على النظريات النقدية المعاصرة ترجمة وتأليفا، وتتأكد هذه القيمة أكثر، بالنظر إلى رجوع عدد من المؤلفين البارزين والباحثين المهتمين بقضايا التراث إلى كتاباته ودراساته.

لقد اتسمت قراءة جابر عصفور لهذا التراث بالسياقية والإحاطة الشمولية التي أفرزت تلك النصوص وأنتجتها، وهكذا نجد قراءته تربط النصوص بمختلف الأنساق المعرفية، في محاولة جريئة لا تتوقف عند حدود التلقي المباشر السلبي أو عند حدود الاجترار والإبلاغ، بل تساهم في إنتاج وجهة النظر وإنتاج تفسيرات، وتسعى إلى إعادة بناء ذلك الخطاب، وكشف المسكوت عنه.

3.2: القراءة النصّية النسقية للتراث النقدي والبلاغي

يحدد جابر عصفور المستويات العلائقية في حدث القراءة إلى أربعة مستويات:

. علاقة القارئ بما يتناصّ معه تراثه المقروء، حيث الحضورُ الآني لهذا المقروء في وعي القارئ بوصفه حضورا مقترنا بالشعور.

. علاقة هذا القارئ (المتصل بتراثه المنسوب في وعيه) بالأنساق المعرفية في عصر القراءة، أي بأدوات إنتاجها للمعرفة وعلاقتها.

. علاقة المقروء نفسه بنسقه في عصر إنتاجه، من حيث ما يتضمنه من حضور خاص بتاريخ وأدوات إنتاج المقروء وليس القارئ.

. علاقة المقروء، في نسقه، بغيره من الأنساق المعاصرة أو السابقة أو اللاحقة بما فيها أنساق القارئ نفسه[16].

وهذه المستويات تشي بما يرومه جابر عصفور ويسعى إليه في قراءته للتراث قراءة نسقية، وينطلق في ذلك من مبدأ مؤداه أن كل نص من نصوص التراث النقدي والبلاغي لا يمكن أن يقرأ بمعزل عن غيره من النصوص، ويعتبر التراث النقدي وحدة سياقية داخل وحدة سياقية أوسع وهي التراث كله، كما لا يمكن عزل هذه النصوص النقدية عن باقي المعارف والعلوم، "فالتراث ليس مجموعة من الجزر المعرفية المنفصلة، التي لا يلتقي فيها النقد الأدبي والفلسفة، أو الفلسفة والتفسير، إن الحال على الضد من ذلك تماما، حين نتأمل الحضور التاريخي للتراث النقدي داخل التراث العام، أو حتى الحضور التاريخي لأي حقل آخر، داخل شبكة الحقول الأوسع التي يتكون منها التراث. صحيح أنها حقول مستقلة نسبيا، داخل مجالاتها التاريخية، ولكن نسبيتها قرينة حضورها العلائقي المشتبك بحضور غيرها. على نحو يغدو معه حضور التراث النقدي داخل التراث العام أشبه بحضور عروق الرخام التي تنسرب في المسطح كله، فلا يمكن فصلها عنه أو انتزاعها منه إلا بتحطيم اللوح أو تشويه هذه العروق، والتراث النقدي لا ينفصل عن غيره من الحقول المعرفية من ناحية، وعن التيارات الفكرية الكبرى التي يدور في فلكها هو وغيره من الحقول المعرفية من ناحية ثانية"[17]، يعتبر جابر عصفور في هذا النص أنه من الضروري النظر إلى

النصوص المقروءة داخل علاقاتها وسياقاتها، باعتبار أن هذا التراث هو بناء لا يقبل التجزؤ، ولا معنى للأجزاء فيه بعيدا عن العلاقات الكلية للبناء. "ومن المفيد – والأمر كذلك – أن نضع قراءة التراث في علاقة مع بقية قراءات حقول التراث الأخرى، لكي نتعمق فهم الوحدة المنهجية للقراءة والوحدة العلائقية للموضوع المقروء معا، ونرصد ما يترتب على هاتين الوحدتين المتكاملتين من نتائج إيجابية لا يتوقف تأثيرها على حدود التراث النقدي في حقله الخاص وحده، بل يتعداه إلى كل الحقول، حيث ينسرب الحضور الكلي لإشكالية التراث في حياتنا المعاصرة"[18].

لقد ذهب جابر عصفور إلى أن كل قراءة للتراث النقدي تتغافل تلك الأنساق والحقول المعرفية التي تتأثر به ويتأثر بها، هي قراءة ناقصة غير ناجعة، تؤدي إلى نظرة جزئية، وتحرم القراءة من زاوية كبرى تسع معها حدقتا العينين في الرؤية، "ومن يستطيع أن يفْصل النقد الأدبي – في تراثنا – عن (علوم الأوائل) خاصة الفلسفة ابتداء من المنطق ومرورا بالسياسة المدنية والأخلاق وانتهاء بما بعد الطبيعة، أو يفصل هذا النقد عن العلوم العربية الخالصة في المجالات اللغوية التي تتضمن النحو والدلالة والعروض، أو يفصل هذا النقد نفسه عن علم الكلام أو العلوم الدينية، حيث تفسير القرآن وشروح الأحاديث والمقدمات الأصولية للفقه. وهناك فضلا عما لم أذكره من علوم الرواية والدراية ما يرد من نقد أدبي، أو يدخل ضمن تصنيفه في الآداب الشعبية أو الرسمية، أو في التأصيل النظري للفنون الموازية، حيث علاقة الأدب بالموسيقى والغناء (السماع) والنسج والرسم والعمارة، أضف إلى ذلك التفاعل بين النقد الأدبي القديم والتيارات الفكرية الكبرى"[19]. وقد طبق جابر عصفور هذه المقاربة في جل دراساته، خصوصا في (الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب) 1973، وفي (مفهوم الشعر – دراسة في التراث النقدي-) 1977.

3. قراءة التراث النقدي والبلاغي في جهود جابر عصفور النقدية:

1. 3. الدراسة الأولى: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب.

تعد هذه الدراسة من الدراسات السباقة في مقاربتها للتراث النقدي والبلاغي مقاربة نسقية، حيث خص هذه الدراسة لتسليط الضوء على (الصورة الفنية) في تراثنا النقدي

والبلاغي، وتعامل مع هذا الموضوع من خلال النظر في علاقاته المتفاعلة مع باقي العلوم والمعارف، والتي ساهمت في إغناء هذا الموضوع، مثل ربطه بالفلسفة وعلم الكلام واللغة والتفسير، يقول في هذا الصدد: "ومما حتم ذلك التعاملَ أن المُنظرين الأساسِيين للنقد والبلاغة العربية كانوا من المتكلمين، والصلة بين المتكلمين والفلاسفة صلة وثيقة، فضلا على أنهم كانوا علماء لغة أو تفسير بارزين، ولا أدل على ذلك من الجاحظ والرماني والزمخشري المعتزليّين، وعبد القاهر والباقلاني الأشعريين، كما أن ناقدا جليلا مثل حازم القرطاجني لا يمكن تعمق تصوره لعملية التخييل الشعري، وفهم حديثه عن (الصورة الذهنية)، دون الرجوع إلى أصوله الفلسفية التي أفادها من الفارابي وابن سينا وابن رشد، سواء في مباحثهم عن النفس، أو شروحهم لكتب أرسطو"[20]، ويصرح جابر أن هذه المقاربة مكّنته من تسليط الضوء على مفهوم الصورة الفنية والتعرف على أصوله وامتداداته، كما أتاحت له هذه النظرة التعرف على جوانب ثرية في تراثنا.

فخصّص جانبا تناول فيه البيئات التي أسهمت في توضيح الأصول الأولى لمبحث الأنواع البلاغية للصورة الفنية، بل اعتبر هذه البيئات هي التي أرست الدعامات الأولى التي قام عليها التراث البلاغي والنقدي كله، وهي: بيئة اللغويين، وبيئة المتكلمين، وبيئة الفلاسفة.

ويعتبر أن البيئة الأولى هي الأقدم زمنيا منذ النصف الأول من القرن الثاني للهجرة بفضل علماء اللغة كأبي عمرو بن العلاء (145ه) والخليل بن أحمد (175ه) وسيبويه (180ه) ويونس بن حبيب (182ه)، وقد مهدت جهود هؤلاء الطريقَ أمام غيرهم وخاصة المتكلمين، أما البيئة الثانية، "فهي تبدأ أساسا بجهود المعتزلة في الدفاع عن العقيدة الإسلامية وما صاحب هذه الجهود من دراسات لموضوعات البلاغة وقضايا النقد، ولقد تبلورت الدراسة البلاغية عند المعتزلة نتيجة عاملين كبيرين: أما أوّلهما فيتصل بدراسة القرآن نفسه، وتبين حقيقة إعجازه ونظمه... أما العامل الآخر فيتصل بالغاية من تعلم البلاغة نفسها، فالبلاغة عندهم عنصر هام في الإقناع الذي هو غاية الجدل الكلامي"[21]. أما البيئة الثالثة الأخيرة، فيشير جابر عصفور للصلة الوثيقة بين الفلاسفة والمتكلمين منذ الكندي (252ه) صاحب تلخيص كتاب الشعر لأرسطو، فقد عمل هؤلاء الفلاسفة على طرح آراء ذات أهمية قصوى خصوصا فيما يتصل بقضايا الشعر والخطابة.

إضافة إلى هذه البيئات، نجد في ثنايا هذه الدراسة بعض الحقول المعرفية الأخرى التي استعان بها جابر في معالجته لهذا الموضوع، من ذلك:

.علم النفس:

وقد تطرق لهذا العلم في معرض حديثه عن التخييل، وأشار على أن هذه الكلمة كانت تستخدم للإشارة إلى بعض الظواهر النفسية التي يمكن إدراجها تحت ما نسميه الآن بسيكولوجية الإدراك وذلك لأن الكلمة كانت تستخدم للإشارة إلى عمليات التوهم، وما يتصل بها من تشكل الأوهام الكاذبة في النفس، بفعل مخادعة الأشخاص، أو بتأثير الخوف أو المرض"[22].

.التصوف:

قدم المتصوفة أفكارا مهمة حول موضوع الخيال، والتي أحدثت انقلابا في التفكير النقدي والبلاغي وغيرت من طبيعة النظرة العدائية إلى الخيال الشعري، "إن الخيال عندهم يساعد في الكشف عن نوع مهم من المعرفة، وينير الطريق لإدراك طائفة من الحقائق المتعالية، التي لا يصل إليها دور العقل الصارم للفيلسوف، ولا يقترب منها ذهن الرجل العادي المنصرف إلى الظواهر والأعراض الزائلة والطارئة"[23]، ويشير جابر في هذاالصدد لما قدمه ابن عربي في الموضوع، فنظرة المتصوفة للخيال . عموما . ساهمت في إغناء الحقل النقدي والبلاغي وفتحت آفاقا رحبة في كشف عمق تلك العلاقات.

.الموسيقى:

ربط جابر عصفور مسألة الإيقاع في الشعر وتناسب الوزن بالحقل الموسيقي، وقد تتبع ذلك عند حازم القرطاجني في مواطنَ عديدةٍ، يقول: "ومادام الأساس واحدا في إيقاع الشعر وإيقاع النغم، فمن الممكن أن يشكل حازم تصوره للوزن الشعري غير مفارق للأصول الأساسية في علم الموسيقى الذي كان يعرفه"[24].

2. 3. الدراسة الثانية: مفهوم الشعر دراسة ظاهراتيّة في التراث النقدي:

تناول جابر عصفور مفهوم الشعر في التراث النقدي وفق دراسة نسقية شاملة تحيط بالمفهوم المزمع دراسته من كل جوانبه، وربطه بسياقاته الخاصة التي تمخض عنها، وقد صرح بذلك في مقدمة الكتاب "وهناك تصورات بالغة الخطورة، تكمل جوانب تراث نقد الشعر، وتعدل من تصوراتنا عنه، يمكن أن نجدها في تفاسير القرآن الكريم وشرح الأحاديث وكتب الفقه والأصول، خاصة حين ترد المقارنة بين القرآن والشعر، أو يأتي مجال للحديث عن جدوى الشعر وآثاره الأخلاقية في حياة المسلمين العامة والخاصة، وذلك جانب آخر لم يدرس الدرس الواجب حتى الآن، وهو يلفت الانتباه إلى الدور الذي لعبته الطوائف الفاعلة في المجتمع الإسلامي، فيما يتصل بصياغة مفاهيم الشعر، وأعني طوائف الفقهاء والفلاسفة والمتصوفة فضلا عن اللغويين والمتكلمين وغيرهم"[25]، فيؤكد بذلك أهمية دراسة التراث النقدي والبلاغي على ضوء هذه الأنساق، مما سيفضي لا محالة إلى ازدياد معرفتنا لهذا التراث، على أن ما ميز هذه الدراسة أن صاحبها كشف عن تأثير الفلسفة في تحديد مفهوم الشعر خصوصا أثر الفلسفة اليونانية، إضافة إلى علوم المنطق والسياسة والأخلاق، والكتاب حافل بإبراز هذه الصلة، وهذا ما يشير إليه جابر، "فإذا كانت خصوصية المادة تصل علم الشعر بعلوم اللسان، من حيث هو لغة، فإنها تصله بعلوم أخرى، لم يكن يعرفها العرب، هي علوم الأوائل أو الأعاجم، كما كان يطلق على المعارف الفلسفية، ومن هذه الزاوية يتصل علم الشعر بالمنطق، كما يتصل بالصناعة المدنية من حيث غاياتُه، وبالتالي بعلمي الأخلاق والسياسة"[26].

كما قام في هذه الدراسة على ربط أفكار النقاد القدامى بثقافة عصرهم والتيارات الفكرية والمناخ السياسي، ومختلف الظروف التي أفرزت أفكارهم وأعمالهم النقدية والبلاغية، فذهب إلى أن ابن طباطبا (322هـ) تأثر بالتيارات السائدة في عصره، تلك التيارات التي جعلت القرن الرابع يشهد أكثر من محاولة لإقصاء العلوم وتصنيفها، فلم يكن ابن طباطبا منفصلا عن هذه التيارات كما تأثر ببعض معطياتها واستعان بها على تحليل الظاهرة، وأشار إلى غير مرة إلى أقوال الفلاسفة وأفكارهم في الشعر والموسيقى والرسم واللذة...، ويعتبر أن ما يدعم هذا النضج عند ابن طباطبا يتمثل في كونه شاعرا وناقدا في الآن نفسه، وله صلة لا تنكر بالمتفلسفة في عصره، وبالتالي فإن نتاج هذه

العوامل والظروف هو ما أفرز هذا الفكر المتميز عند ابن طباطبا في عيار الشعر. أما في القرن السابع، حيث ظهر مفهوم حازم القرطاجني للشعر ووظيفته، في كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، فلا يمكن أن نفهم أو أن نحكم على أهمية ما أنتجه حازم بمعزل عن الظرف التاريخي الذي عاشه ذلك البلاغي العربي، أي في عصر عرف حملة عداء شديدة ضد الشعراء، قادتها طوائف من أهل النقل باسم التقوى والأخلاق، وفي مرحلة عرفت هوان الشعر بعد قرنين من وفاة آخر الشعراء الكبار، ويقول جابر: "ولقد واكب جهده النقدي وعيه الحاد بأنه يعيش في مرحلة تخلّف متعددة الأبعاد، على مستويات الإبداع والنقد والفكر والسلطة السياسية في آن، وكان وعيه بانهيار الشعر. ولقد اختار العقل في عصر يعادي العقل، واختار الفلسفة في عصر يشك في الفلسفة، واختار الارتباط بالماضي المتقدم في عصر لم يعد يعي إلا التخلف، وكان عليه أن يطرح - متوحدا - قضية الشعر من جديد، في ضوء اختياره الخاص، وفي ضوء الظرف التاريخي المعقد الذي عاش فيه"[27].

3. 3. دراسة التيارات الفكرية:

إن المتتبع لكتابات جابر عصفور سيلاحظ مدى اهتمامه بدراسة التراث النقدي والبلاغي، في إطار نسقه الفكري الذي أفرزه، فغالبا ما يقرن اسم الناقد بمذهبه أو تياره الفكري كقوله : الجاحظ المعتزلي، أو عبد القاهر الأشعري، أو ابن المعتز الحنبلي... بل اعتبر أن مجال النقد والبلاغة وُظّف إيديولوجيا لخدمة هذه التيارات الفكرية في سياق من التفاعل المتبادل، إذ يقول: "أضف إلى ذلك التفاعل بين النقد الأدبي القديم والتيارات الفكرية الكبرى التي تفاعلت وتحاورت، تضاربت وتصارعت، انتصرت وانهزمت، عبر الحقب التاريخية للتراث، في أنساق معرفية أساسية ترتبط بالنقل والعقل والحدس والتجريب، من حيث هي أدوات للمعرفة وعلامات على توجهاتها في الوقت نفسه، وبقدر ما كان التراث النقدي مشتبكا مع هذه التيارات كان منغمسا في صراعها، بل كان أداة من أدواته في غير حالة، ومن ذا الذي يستطيع أن يفصل نصوص الجاحظ والرماني والقاضي عبد الجبار والزمخشري عن سياقها الاعتزالي... أو يفصل التضاد بين ابن قتيبة والجاحظ عن التضاد بين النقل والعقل"[28].

ومن هذا المنظور تناول جابر عصفور قضية اللفظ والمعنى، حيث أوضح أن الفصل بين الألفاظ والمعاني تبلور في بيئة المعتزلة، في معرض حديثهم عن المجاز، "وحاولوا من خلالها فهم النص القرآني فهما ينزه العقيدة عن كل ما يتعارض مع أصل التوحيد الاعتزالي"[29]، ثم تناول هذه القضية عند الأشاعرة في مشكل خلق القرآن، وما ذهبوا إليه من التفرقة بين (المدلول) و(الدال)، ثم انتقل هذا التصور من دائرة الفكر الإسلامي وعلم الكلام إلى دائرة الأدب والنقد. ويعزو جابر عصفور وجود هذا التداخل بين هذين المجالين إلى أن المتكلمين كانوا أصحاب اجتهادات متميزة في اللغة والنحو "وهل يمكن للمعتزلة أن يمضوا في تأويل المجاز القرآني دون استناد إلى أساس لغوي مكين؟ وهل كان تفكير عبد القاهر، في كل ما خلفه من كتب في البلاغة والنحو إلا نسيجا متداخلَ الخيوط ترجع بعض أسسه إلى أفكار المدرسة البصرية في اللغة، وإلى عقائد الأشعرية في الكلام، وإلى شروح أمثال ابن سينا في الفلسفة؟"[30].

كما تطرق جابر عصفور لثنائيتي (الحضور) و(الغياب)، فمثلا تشير نصوص ابن المعتز إلى نصوص وكتابات ما يشبهها أو يقاربها داخل النسق المعرفي من كتابات أهل النقل، في الحين نفسه تحيل إلى ما يناقضها ويعارضها في الأنساق المعرفية المضادة حيث كتاباتُ أهل العقل خصوصا المعتزلة، بقول: "على نحو لا يكتمل معه فهم الحاضر في النص المقروء إلا بوصله بقرينة الغائب الذي يحدده، ويكشف عن دلالته، من منظور التشابه أو التضاد"[31]، وهكذا يعتبر أن التراث النقدي ليس بنية منغلقة ومكتفية بذاتها، بل هي على العكس من ذلك منفتحة على أنساق معرفية أوسع.

من خلال ما تقدم، فإن قراءة جابر عصفور للتراث النقدي والبلاغي اتسمت بالنسقية من حيث الظاهر والسياق، تضع في الحسبان علاقة هذا التراث ببقية الحقول المعرفية الأخرى، فالنص التراثي ليس بنية مغلقة منعزلة عن نفسها، بل هو بنية مفتوحة تستحضر مختلف الأنساق والسياقات التي ساهمت في إنتاج تلك النصوص. وعلى الرغم من أن البعد الزمني يقف حائلا بين القارئ والتراث، فإن القارئ عندما يبسط يده للتراث لمصافحته، فإنه في الحقيقة يبعثه من مرقده، والنص الذي يكتفي بالقراءة الواحدة يتوقف عن الاستمرار والتجديد. فالنصوص التراثية لا تقرأ ولا تُؤوّل إلا من حيث هي نصوص قديمة تتضمن شحنة تاريخية، نشأت وتطورت وفق نسيج من العلاقات المعرفية

والتاريخية في سياق ثقافي وفكري وسياسي، وإغفال هذه الظروف من شأنه أن يؤدي إلى قراءة ملتبسة لهذا التراث، كما أن القراءة التي لا تنظر إلى النص التراثي في شموليته وسياقه ولحظاته التاريخية، هي قراءة لا تستهدف من هذا التراث إلا الانتقاء.

4.خاتمة:

خلص البحث إلى نتائجَ وتوصيات نسجّلها في النقاط الآتية:

1 . الأعمال الفنية والجمالية هي أعمال مفتوحة دلاليا، وبنيات غير مكتملة، تستوجب من القارئ إتمامها، وملء فجواتها وثغراتها.

2. القراءة النسقية تدرس النص الأدبي في ضوء التصورات الفكرية والتصورات السياقية، حيث يتم الربط بين الذات القارئة والنص الموضوع في علاقات تفاعلية وجدلية وسياقية.

3. إن القراءة نشاط متعدد الوجوه وذات أبعاد كثيرة، "فقد تكون من فرد لفرد، ينتسب كلاهما إلى الحضارة نفسها، قراءة الحاضر للماضي، تواصلا للتراث مثل قراءة ابن رشد للفارابي وابن سينا، وقراءة أرسطو لأفلاطون، وقراءة هيدجر لكانط ونيتشه وهوسرل...إلخ، وفي هذه الحالة تكون القراءة تصحيحا وتجديدا لروح العصر عن طريق التأويل.

4. انكبّ الدارسون المحدثون على قراءة التراث العربي في النقد والبلاغة إيمانا منهم بما يتضمنه هذا التراث من مؤلفات ذات أهمية قصوى وما تزخر به من أفكار وتصورات متميزة، لذا تعددت:

. قراءة تركز على قضية بعينها من بين القضايا النقدية القديمة (كاللفظ والمعنى، أو السرقات.

. قراءة تسلط الضوء حول شخصية نقدية أو بلاغية قديمة، إذ يحاول القارئ تتبع الفكر النقدي لها.

. قراءة تتمحور حول التراث النقدي والبلاغي في كليته وشموليته، تبحث في التصورات النظرية والتطبيقية.

5. اتسمت قراءة جابر عصفور لهذا التراث بالسياقية والإحاطة الشمولية التي أفرزت تلك النصوص وأنتجتها، وهكذا نجد قراءته تربط النصوص بمختلف الأنساق المعرفية مثل علم النفس والتصوف والموسيقى.

6. التراث النقدي لا ينفصل عن غيره من الحقول المعرفية من ناحية، وعن التيارات الفكرية الكبرى التي يدور في فلكها هو وغيره من الحقول المعرفية من ناحية أخرى، من هنا تطرق جابر عصفور لقضية اللفظ والمعنى ولثنائيتي الحضور والغياب.

7. وقد طبق جابر عصفور هذه المقاربة في جل دراساته، خصوصا في (الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب) **1973**، وفي (مفهوم الشعر – دراسة في التراث النقدي-) **1977**.

8. تناول جابر عصفور مفهوم الشعر في التراث النقدي وفق دراسة نسقية شاملة تحيط بالمفهوم المزمع دراسته من كل جوانبه، وربطه بسياقاته الخاصة التي تمخض عنها، وقد صرح بذلك في مقدمة الكتاب.

9. قام جابر عصقور في هذه الدراسة على ربط أفكار النقاد القدامى بثقافة عصرهم والتيارات الفكرية والمناخ السياسي، ومختلف الظروف التي أفرزت أفكارهم وأعمالهم النقدية والبلاغية.

10. إن المتتبع لكتابات جابر عصفور سيلاحظ مدى اهتمامه بدراسة التراث النقدي والبلاغي، في إطار نسقه الفكري الذي أفرزه، فغالبا ما يقرن اسم الناقد بمذهبه أو تياره الفكري كقوله: الجاحظ المعتزلي، أو عبد القاهر الأشعري، أو ابن المعتز الحنبلي..

*** *** ***

5. الهوامش:

1 - فان ديك: النص بنياته ووظائفه (مدخل أولي إلى علم النص)، ترجمة: محمد العمري، إفريقيا الشرق، ط1، 1996، ص 76.

2 - جميل حمداوي: نظريات القراءة في النقد الأدبي، مؤسسة الثقافة العربية، سيدني أستراليا، ط1، 2011، ص17.

3 - عبد الواحد المرابط: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص 180.

4 - قارة مصطفى نور الدين: النص الأدبي من النسق المغلق إلى النسق المفتوح، دكتوراه، جامعة وهران، 2010، ص 196.

5 - أحمد يوسف: سيمياء التواصل وفعالية الحوار، دار الرشاد للطباعة والتوزيع، وهران، الجزائر، ط1، دت، ص 184.

6 - محمد مبارك: استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1999، ص28.

7 - حسن حنفي: قراءة النص، مجلة ألف، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط 2، 1993، ص 10.

8 - سعيد بنكراد: مسالك المعنى، دراسة في بعض أنساق الثقافة العربية، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2006، ص 51.

9 - حميد لحمداني: القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2003، ص 295.

10 - قاسم المومني: علاقة النص بصاحبه، دراسة في نقود عبد القاهر الجرجاني الشعرية، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 25، أبريل 1998، ص 116.

11 - عبد المالك مرتاض: نظرية القراءة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران الجزائر، ط1، 2003، ص 20.

12 - أمبرتو إيكو: الأثر المفتوح، تر عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار، اللاذقية، سورية، ط2، 2001، ص 130.

13 - نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط6، 2001، ص 29.

14 - جميل حمداوي: نظريات القراءة في النقد الأدبي، ص 221.

15 - المرجع نفسه، ص 222.

16 - جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط 1، 1994، ص 70.

17 - المرجع نفسه، ص 49 - 50.

18 - نفسه، ص 51.

19 - نفسه، ص 52.

20 - جابرعصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط 3، 1992، ص 11.

21 - المرجع نفسه، ص 10-11.

22 - نفسه، ص 16.

23 - نفسه، ص48.

24 - نفسه، ص 307.

25 - جابر عصفور: مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 5، 1995، ص 6 - 7.

26 - المرجع نفسه، ص 21.

27 - نفسه، ص 12.

28 - جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، ص 50 – 51.

29 - جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص 314.

30 - نفسه، ص 102 – 103.

31 - جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، ص 68.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد يوسف: سيمياء التواصل وفعالية الحوار، دار الرشاد للطباعة والتوزيع، وهران، الجزائر، ط1، دت.
2. أمبرتو إيكو: الأثر المفتوح، تر جمة: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار، اللاذقية، سورية، ط2، 2001.
3. جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3،1992.
4. جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط 1، 1994.
5. جابر عصفور: مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 5، 1995.
6. جميل حمداوي: نظريات القراءة في النقد الأدبي، مؤسسة الثقافة العربية، سيدني أستراليا، ط1، 2011.
7. حسن حنفي: قراءة النص، مجلة ألف، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط 2، 1993.
8. حميد لحمداني: القراءة وتوليد الدلالة (تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2003.
9. سعيد بنكراد: مسالك المعنى، دراسة في بعض أنساق الثقافة العربية، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2006.
10. عبد المالك مرتاض :نظرية القراءة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران الجزائر، ط1، 2003.
11. عبد الواحد المرابط: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، بيروت، لبنان، ط1، 2010.

12. فان ديك: النص بنياته ووظائفه (مدخل أولي إلى علم النص)، ترجمة: محمد العمري، إفريقيا الشرق، ط1، 1996.
13. محمد مبارك: استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1999.
14. نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط6، 2001.

المقالات:

15. قاسم المومني: علاقة النص بصاحبه، دراسة في نقود عبد القاهر الجرجاني الشعرية، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 25، أبريل 1998.

رسائل الدكتوراه:

16. قارة مصطفى نور الدين: النص الأدبي من النسق المغلق إلى النسق المفتوح، دكتوراه، جامعة وهران، 2010.